الشعر الشعبي الثوري: قراءة في بعض المضامين و الأدوات الفنية

تمهيد:

إن الحديث عن التراث الشعبي قد أضحى حاجة ملحة فرضتها إشكالية البحث في القيم الثقافية و الفكرية الأصلية للشخصية الوطنية، و البحث في مجاله يعد بحثا أصيلا مرتبطا بالكيان الثقافي.

إن هذه الحاجة بدون شك يمليها الواجب و مسؤولية إثبات الذات و تحديد هويتها في خضم التهافت الفكري و السياسي و الإيديلوجي.

و التراث الجزائري يمتاز بالتعدد و التنوع من حيث أشكاله التعبيرية:(حكايات، ألغاز، نكت، أغاني، شعر...) إن هذه الفنون التعبيرية الشعبية مرتبطة بهموم و آمال الإنسان في حركيته الثقافية و الاجتماعية و النفسية.

و الشعر الشعبي من الفنون الشعبية التي ساهمت في صناعة الثورة و التأريخ لها من خلال المعاني و الأمثال التي يستند عليها هذا الإرث الحضاري المصنف ضمن الأساليب التعبيرية الشفهية التي صنعت رصيد الثورة و كشفت عن المسكوت عنه.

مفهوم الشعر الشعبي:

كثيرا ما يتبادر إلى الذهن أن الشعر الشعبي ما هو إلا شعر سوقي وضيع ذلك أنه يصور طقوس الحياة بصورة يغلب عليها التعميم و بلغة عامية خالية من أيّ جمالية؛ و لئن تناول الباحثون الأشكال الشعبية بالتعريف و الدراسة، فإن الشعر الشعبي لم ينل حظه من الدراسة و التجنيس على الرغم من أهميته في رصد الأحداث و الوقائع الاجتماعية و سلطته الاجتماعية و الثقافية و شهرة مبدعيه، بل و كثيرا ما ننساه في تصوراتنا فيما هو يتحدانا في حياتنا الاجتماعية فضلا عن أنه يشكل ذاكرة شعبية. (1)

يعتبر مصطلح الشعر الشعبي من المصطلحات التي جلبت اهتمام الباحثين، بل و أثارت اختلافا كبيرا بينهم، إلا أنهم يتفقون جميعا أنه الشعر المنظوم بالعامية؛ عرّفه المرزوقي بقوله:" ... يشمل كل منظوم بالعامية سواء أكان معروف المؤلف أو مجهوله..." (2)

و يسير مارون عبود في السياق ذاته حين يخاطب الشعراء الشعبيين، محاولا تبيين معالم الشعر الشعبي:"...إن الشعور بالحياة و إدراكها الكامل لا يكونان تابعيين إذا عبرت عنهما بغير اللغة الدائرة على الألسن و بهذا يثير شاعرنا العامي "النفوس، إثارة يعجز عنها أكبر شعرائنا الرسميين" [3]

مضامين الشعر الشعبي الثوري

لقد ارتبط الشعر الشعبي الجزائري منذ بداياته باللحظات الحاسمة من تاريخ الجزائر؛ إذ رصد الشاعر الشعبي كل تفاصيل المقاومة، و راح يدعو بقصائد حماسية إلى المقاومة[4] لأن الشعر الشعبي واسع الانتشار لما يحتويه من بناء موسيقي و اختيار للكلمات و قدرته على الانتقال من الفم إلى الآلة و من الآلة إلى القلب.

و تعد قصيدة لخضر بن خلوف* التي سجل فيها موقعة مازغران* أقدم قصيدة شعبية، يقول فيها:

يا فَارْسْ مْنْ تْمْ جِيتْ اليُومْ غَـزْوَة مَازْغْـرَانْ مَعْلُومَـة

يا عَجْلاَنَا رَيَضْ المْلْجُومْ رِيتْ أجْنَابْ الشْلوموشُمة

يَا سايَلْنِي عَنْ طِرادْ اليُومْ قْصَة مَازْغْـرَانْ مَعْـلُومَــة [5]

وسجل الشاعر الشعبي ولد عمر حدثا آخر عاشته الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي حين قصفت الدانمارك الجزائر [6]

بْسْمْ الله نْبْدَا عْلى وَفاَ ذَا القْصْـة تـعْـيَـانـَـا

قْصَة ذا البُونْبَة المْتافْة كِيْف جَابُوهَا أَعْدَانَا

يَا رَبي يَا عَالْمْ بِالْخَفَا اهْزْمْ جَيْشْ أَعْدَانــَـا [7]

و كذلك حين احتلت فرنسا الجزائر كان الشعر الشعبي حاضرا يرصد تفاصيل الواقعة، و اتخذ أدواره الفاعلة حين اندلعت ثورة التحرير:

عْلاَمْنَا المَنْصُـوْرْ لا طَيَارَة لاَ بَابُوْرْ

بْقُدْرَة رَبي و الَرسُــولْ أَحْنَا الْلِي نْجِيبُو الحُرِيَة

عْلَامتْنَا نْجْمَة و هْلاَلْ رْفَعْنَـاهْ عْلَى الجبَـــالْ

قْمنَا نْسَا وْ رْجَـالْ أُحْنَا الْلِي نْجِيبُو الحُرِيَة (8)

كما تلقف الرواة الشعبيون القصائد الثورية و راحوا ينشدونها في الأسواق و المناسبات لتحريك النفوس و إلهاب الهمم:

الأيَام يَا اخْوَانِي تْبْدْلْ سَاعْتْهَا و الَدهرْ يْنقلْبْ و يْوْلي فالْحِينْ

الفْرَنْسِيْس حَرَكْ لْهَا و خْذَاهَا لاَ هِي مْيَاتْ مْرَاكْبْ لاَ هِيَ مْيتينْ

بْسْفايْنْهَا يْفرْص الحَرْبْ قْبَالْهَا كِي جَاوْ فْالْبْحرْ بْجْنُودْ قْويـيـنْ

رَاني على الجزاير حْزِين (9)

و قد اعترف الأربيون أن هذه القصيدة قد ساهمت فعلا في إضرام نار الثورات، كما كان لهذه القصيدة فائدة تاريخية و إعلامية، فقد رصدت الحالة النفسية للجزائريين، و أبدعت في المقارنة بين حال الجزائريين في عهد الأتراك (10)

مْزْغْنَة سُلْطَانَة المُدُنْ بالجُمْلَة النَاسْ تْخَافْهَا فِي البَرْ و البَحْرَيْنْ

و بْيـــنْ الجَزَائِرْ زَالْ الْكْلاَمْ عَنْهَا يا مُسْلِمِينْ (11)

كما سجلت هذه القصيدة موقف اليهود السلبي حيال القضية الجزائرية:

حْتَى اليْهُودْ فَرْحُوا لِينَا و نْسَاهُمْ لْكْلاَبْ تْزغْرَتْ (12)

و لهذا يمكن اعتبار الشعر الشعبي سجل تاريخي؛ فقد سجل أدق التفاصيل عن تاريخ الجزائر التي ربما لا نجدها حتى في كتب التاريخ و خاصة فيما تعلق بالثورة التحريرية، فقد كان الشاعر الشعبي جنديا من جنودها؛ يسجل مآثرها و يدعو إلى مؤازرتها مترنما بشعره في الأسواق و المناسبات و اتخذ بذلك دوره الإعلامي، بل و التحفيزي أيضا؛ إذ حفز للثورة و المقاومة و الأكثر من ذلك أنه تتبع حتى أخطاءها و هفواتها، فهذا الشاعر المجاهد دريسي البشير* يدعو الثوار إلى الابتعاد عن الخلاف، و يدعو الله أن يوحد الصفوف:

يَا رَبِي يَا خَالْقِي بِينَا تُلْطُفْ وْ وَصَلْنَا يَا خَالْقِي إلى الأَمَالْ

يَا رَبْ العْبَادْ وَحَدْ هَذا الصَفْ تتَحْدْ رْجَالْنَا قَبْلَ الآجَـــالْ

يْصْبَحْ الاسْتِعْمَارْ مَهْزُومْ مْكْتْفْ و يْوْلِي مْحْقورْ وأذْنَا بو الأُرذَال (13)

و كان أيضا من النساء شاعرات أنشدن قصائد شعبية شكلت خطرا على المستعمر منهن الشاعرة المجاهدة فاطمة منصوري* أبدعت قصيدة سنة 1956حين أرسل لها مجاهد رسالة يخبرها فيها انه على قيد الحياة بعد أن ظن الناس ان فرنسا قتلته، فأذاعت الخبر بشعرها(14)

جْوابْ البْعَايدْ مْنْ مَبْروكْ وْصَلـتْـاَ

و أطلقْ سْراحه يا إلَهي لِـينَـــا

عَلَيكَ السلَامْ و إن شَاءْ الله تْجْمْلْنـا (15)

و قد ألقي القبض على هذه الشاعرة لما رأى المستعمر أن شعرها يشكل خطرا، و طلب منها أن تكف عن قول الشعر لكي يطلق سراحها فرفضت (16) و ردت قائلة:

حَالْفَة مَا نْبَطَلْ الافْتَانْ كَانْشْ لَرْبْحْنَا الحُريَة

عَنْها نْسْكْنْ في الجْبالَ و نْنِهيها بالفَنْتَازيا

عَنْها طْلَعْنَا لْجْبْلْ الأَوْراسْ و نْوطَنا في الأَرْيَاسْ (17)

و قد أدركت هذه الشاعرة ما لشعرها من قوة التأثير على الجماهير فأصرت على اتخاذ شعرها وسيلة للكفاح.

<u>الأدوات الفنية في الشعر الشعبي</u>

رغم أن الشعر الشعبي يحمل رسالة اجتماعية و رغم أنه اتخذ تفاصيل الحياة اليومية موضوعا له إلا أن الشاعر الشعبي قد كان على وعي تام بمختلف عناصر الشعرية التي تحقق الإثارة و الدهشة و التفاعل مع المتلقي، فلا عجب إن وجدناه

يوظف استراتيجيات لغوية ليشحن نصه بعناصر الإثارة الشعرية و التخييلية ليحقق لنصه شرط الجمالية و الشعرية و ينأى به عن اللغة العادية القاموسية إلى لغة مشحونة بالإيحاء و الرموز و الصور.فعند قراءتنا للمقطع التالي:

لاَ لا يا شَجْرَة الكْرُوْشْ* مْلْيَانَة حَبْ وْ كَرْتُوشْ

المُجَاهِدينْ جْيُوشْ جْيُوش زَدْمُوا و ماَ يْخَافُوشْ

لاَ لاَ يَاشجرَة العَرْعَـارْ مْلْيـانـة سْلاحْ و نَارْ

هَـذوكْ دْرَارِي ثُـــوارْ على دِينْهُمْ زَدْمُوا للنَارْ (18)

نلاحظ أن الشاعر يحشد مجموعة من الألفاظ المستمدة من قاموس الطبيعة ليشحنها بمعاني ثورية (شجرة الكرتوش، شجرة العرعار، حب)؛ حيث تضحى شجرة البلوط تحمل الرصاص إلى جانب حب البلوط، و شجرة العرعار مليئة بالسلاح و النار. و قد وظف الشاعر شجرة العرعار لما تمتاز به من قوة إذ تستخدم في الحقول لكسر الرياح العاتية، و ربما لهذا السبب مزج الشاعر بينها و بين السلاح و النار.

إن حشد هذه الألفاظ الموحية يعطي للوصف جمالية و حضورا فنيا؛ فإذا كان الشعر الفصيح قد كان له باع طويل في الوصف، فإن الشاعر الشعبي قد أبدع في هذا الغرض و تفنن في صوره الجمالية. إن الشاعر بتوظيفه للفظ الموحي المستمد من قاموس الطبيعة فإنه يتجاوز التصوير المباشر إلى التصوير الفني الداخلي الذي يفصح عن حجم المأساة؛ فتضحى الطبيعة جزءا من المحنة؛ فشجرة العرعار مزيج من ثمر و رصاص، مليئة سلاحا و نار.

و كثيرا ما يتكئ الشاعر على الخلفية الثقافية و العقيدية المشتركة بينه و بين المتلقي، لذا فهو يستعمل معجم ألفاظ مشحونة بالإيحاء العقيدي، و " الألفاظ العاطفية و القيمية سواء كانت أسماء أو صفات أو أفعال" (19)

يقول الشاعري يحي بختي*:

يَا رَبِي يَا خَالْقِي طَفْ ذا الهْـــولْ حَشَتـمْتَكْ بْجَاهْ طَهَ المَدَنـي

مَاذاَ مْنْ أُسُوْد في السْجْنْ المَقْفُولْ مْـنْ ذَا أَلَـمْ قَـلـبِي نْـوانِـــي

مْنْ ذَا الْلفْعَة سْمْهاَ وَاعْر قَتُــولْ مْـن تْـبَـعَـها رَاهُ فْـعْلو شيْطَاني

ما عَنْدوشْ الِنيفْ في فْعْلو مْذْلُولْ ما يْدْخُلْ فـي دِينْ طَـهَ المَدَنــي

طْلَبْتكْ يا خَالـقِي طفْ ذا الهُــولْ عِيـن المـسْلمِيـن علـى الزْمـانْ

ذْلْ الكفَرَة ذُوكْ عْدْيانْ الرَسولْ واهْبي قَاعْ أصحَاب فْعْلْ الشِيطاَن [20]

الملاحظ أن الشاعر في هذه المقطوعة يقوم بحشد مجموعة من الألفاظ القيمية ليسقطها على الفرنسيين (الكفرة، عديان الرسول، أصحاب فعل الشيطان، ما عندوش النيف، في فعلو مذلول)

و يستعمل الشاعر أحمد بوكويرة* الطريقة نفسها مخاطبا الفرنسيين:

يا شِينِينْ الدِينْ عْدْيَانْ المُخْتَارْ راَه وْقْفْ تِيجَا لْكُمْ حَدْ نْهَارُو[21]

نجد لفظة كفار مدعمة بلفظة شينين الدين، عديان المختار بوصفها ألفاظا قيمية تحمل مرجعية عقيدية يجعلها الشاعر بؤرة في شعره من أجل أن يحدث حيزا انفعاليا تواصليا بينه و بين المتلقي. و لعل هذا ما يعزز الوظيفة التواصلية للشعر الشعبي أثناء الثورة، إذ لم يوظف كمحفز للقيام بالثورة فحسب، بل كان وسيلة لمقاومة المسخ الحضاري[22] و من ثم كان لا بد للشاعر أن يتوسل جمالية اللغة و الأسلوب للتأثير في المتلقي، و لعل الرمز من أهم الأدوات الفنية التي تعزز التأثير و التواصل و بخاصة الرمز الديني؛ و هذا ما يعزز حضوره بكثرة في الشعر الشعبي الثوري خاصة شخصية علي كرم الله وجهه بوصفه رمز للبطولة و الانتصار، و كثيرا ما يمزج الشاعر بين الرمز الديني و الأسطوري ؛ إذ يوظف سيف علي الذي حيكت حوله الأساطير؛ فهو يسقط مائة كافر عن يمينه و مائة كافر عن شماله [23]:

جِيْشْ مُظَفَرْ نَاْضْ دَمَر الاْستِعْمَارْ عُقْبَة و طْيُورْ و أَشْبَالْ مْعَاهَا

جْبْد قَلْب الْلي يْقشوه بالأَظَافِــرْ و ثُرَية حِيدارْ نَاضْتْ لْغْداهَا [24]

و يقصد الشاعر بثرية حيدار سيف علي. كما يوظف الشاعر الطير و العقاب (عقبة: جمع عقاب، و يقدم الشاعر صورة جميلة؛ صورة الفتك بالطريدة:" تجبد قلب اللي يقشوه بالأظفار".

و بالإضافة إلى الرمز يوظف الشاعر الشعبي التناص الديني و الاقتباس من القرآن رغبة منه في تعميق الخلفية الدينية، و يحقق التناص وظيفة دلالية مثلما نجد عند الشاعر ادريسي البشير:

يَا رَبْ العِبَادْ وَحَدْ هَاذْ الصَفْ تْـتَـحْــدْ رْجَالْ قْــبْــلْ الآجال

يْصْبَحْ الاسْتِعْمَارْ مَهزُومْ مْكْتْفْ و يْوْلي مْحْقورْ و آذانو الأُرذَالْ

و سْلْكْنَا كِمَا سْلْكْ مْنْهَا يُوسْفْ وْسْطْ الجُبْ ومْعَاهْ خُوتُو الأطْفَالْ

فِي مِصْرْ بَاعُوهْ مْمْلُوكْ مُنْصِفْ و اشْتَرَاهْ أمِيرْ بْرْخِيْص المـَالْ (25)

و هنا يقدم الشاعر تقنية الإيجاز التناصية أو ما يسمى بالإحالة المحضة و هي أن يعتمد الشاعر على المشهور ليشبه بها حالا معهودة فيقدم بذلك معالم دالة ذات مغزى (26)

إن لغة القصيدة الشعبية الثورية عموما هي لغة عامية و أحيانا هي عامية أقرب إلى الفصحى تخلو من التعقيد و الغموض، إلا في بعض القصائد التي يكتنفها الرمز أو الإيحاء، أما غيرها فلا يحتاج إلى مهارة و إعمال فكر لتفجير أبعادها (27)

خاتمة

نظرا للانكسارات المتتابعة للأحلام و الأماني و علاقات الإنسان بالإنسان صار الفرد الجزائري يحمل انكسار القلب كما كان يحمل أتعاب يومه، فأصبحت كل الأفواه فما واحدا ينطق بالتعبير عن همومه، انطلاقة واحدة بصور عفوية و تلقائية متناهية تحمل له اطمئنانا و سكينة روحانية، لم تمتلك نفوس الجزائريين حينها إلا أن تستصرخ متغنية أو تغني مستصرخة، فأوحت لها الآلام و الأشجان حسا فنيا يتدفق حلاوة بأشعار شعبية ثورية تميزت بجزالة المعنى و رقة اللفظ و اكتنازه بالحكم و الأمثال. و تتميز الأشعار الشعبية بالكلمة العفوية التي يكون ظاهرها بسيط و في فحواها عمق التعبير.

و يعمل الشاعر الشعبي على خلق حالة من التوافق و الائتلاف بين حركة النفس و حركة العالم الخارجي من خلال توظيف الرمز و التناص و التصوير.

إن الشعر الشعبي بكل أغراضه و فنونه متنوع الصور؛ إذ يحاول الشاعر من خلاله أن يبرز كل ملامح الحياة بكل أبعادها و تفاصيلها، و بهذا استطاع الشاعر الشعبي أن يصور و بفنية و جمالية ما يرى و يعايش و ذلك أن الشعر الشعبي حدث سماعي بالجمال و التصوير و الوصف الذي يتجسد بكل مقاصده في حاضرنا و في ماضينا أيضا.

لهذا فإن الشعر الشعبي الثوري قد بقي صداه في الذاكرة الشعبية؛ إذ حرك الهواجس و أرخ للمشاعر في لغة محتشدة بالطاقة الشعورية و مثقلة بجماليات التصوير تفوح بزمن مضى.

الهوامش:

1) ينظر محمد بنيس" الشعر العربي الحديث بنياته و إبدالاتها"، ص 27

(2) محمد المرزوقي" الأدب الشعبي" الدار التونسية للنشر، تونس ، ص 51

(3) مارون عبود" الشعر العامي"، بيروت 1968 ص63

(4) ينظر أحمد قشنوبة:" الشعر الغض، اقترابات من عالم الشعر الشعبي" منشورات رابطة الأدب الشعبي،اتحاد الكتاب الجزائريين، ص 63

* لخضر بن خلوف شاعر شعبي و فقيه عاش في القرن التاسع الهجري عمر طويلا(125) سنة

5 مقدمة ديوان لخضر بن خلوف جمعه و حققه محمد بن الحاج. دار ابن خلدون للنشر تلمسان ص 23

* موقعة مازغران: وقعت بين الإسبان و الجيش الجزائري.

(6) أحمد قشنوبة" الشعر الغض" ص65

(7) المرجع نفسه ص 65

(8)مجلة آمال عدد خاص بالشعر الملحون اصدار وزارة الأخبار الجزائر العدد4 نوفمبر1969 ص73

(9) أحمد قشبونة الشعر الغض ص66

10 المرجع نفسه ص 66

(11) المرجع نفسه ص67 * دريسي البشير شاعر شعبي من بسكرة

(12) المرجع نفسه ص 67

(13) ديوان الشعر الشعبي في الثورة التحريرية، منشورات جائزة الأوراس باتنة ديسمبر. ص 50

(14) ديوان الشعر الشعبي(شعر الثورة) تقديم أحمد حمدي اصدارات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ص 42

(15) المصدر نفسه، ص 43

(16) المصدر السابق، ص43 * فاطمة منصوري شاعرة من الوادي(1925_

(16) ديوان الشعر الشعبي ص 70

* الكروش: شجرة البلوط

(18) ديوان الشعر الشعبي ص 80

(19) غريب اسكندر" الإتجاه السيميائي في نقد الشعر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص30

* يحي بختي: شاعر شعبي من الجلفة

(20) ديوان الشعر الشعبي ص 90

* أحمد بوكويرة شاعر شعبي من الأغواط

(21) المرجع السابق ص91

(21) ينظر بولرباح عثماني"" دراسات نقدية في الأدب الشعبي" الرابطة الوطنية للأدب الشعبي الجزائر ص 20

(22)ينظر أحمد قشنوبة الشعر الغض ص 75

(23) المرجع نفسه ص75

(25) ديوان الشعر الشعبي ص 100

(26) ينظر غريب اسكندر" الاتجاه السيميائي في نقد الشعر ص27

(27) ينظر بولرباح عثماني"دراسات نقدية في الشعر الشعبي"، وزارة الثقافة. الجزائر، ص38